قصور مفهور "الطبيعة الإنسانية"
(قراءة نقدية)

أ. د. عزت قرني
أستاذ الفلسفة اليونانية بقسم الفلسفة
كلية الآداب - جامعة عين شمس (سابقاً)
ومقرر لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة
ورئيس تحرير مجلة الفكر المعاصر

... لو نظر إلينا ناظر ثاقب البصر من أعلى السماء، فماذا، يا ترى، سيكون شكل الأرض أمامه؟ وماذا، على الخصوص، سيكون انطباعه عن حركات البشر، الذي يزيد عددهم اليوم كثيرًا عن ستة آلاف مليون نسمة؟ ربما ستكون رؤيته الأولى لهم على هيئة غير منتظمة كثيرًا، وأقرب ما تكون إلى الفوضى أحيانًا، وربما تعجّب من تعجل بعضهم، ومن سكون آخرين، ولكنه سيصل في النهاية إلى أنهم جميعًا متشابهون إلى درجة كبيرة من حيث التكوين ومن حيث القدرات، وإلى أنهم، غالبًا ما يضعون أنشطتهم، الناتجة عن ذلك التكوين وتلك القدرات، في نماذج وعلى هيئات يمكن تنظيمها وإرجاعها إلى عدد أو آخر من النماذج والهيئات الأساسية التي يمكن تصنيفها على أشكال مختلفة، وسيصل كذلك، من غير شك، إلى أن كل كائن بشري على هذه الأرض يحوز قدرًا أساسيًا من العناصر والسمات ما يشترك به مع كل الآخرين، وربما يسمى هذه الأمور المشتركات، من تكوين وقدرات، ومن نماذج الأنشطة وهيئاتها، ومن عناصر وسمات، ربما يسميها "بالطبيعة الإنسانية". هذه "الطبيعة الإنسانية"، بحسب اصطلاح قاصر وخطر كما سنرى، أو "طبيعة الإنسان"، بحسب اصطلاح أفضل قليلاً ولكنه قد يؤدي إلى سوء الفهم، أو فلنقل بالأحرى "خصائص التكوين الأساسي الإنساني"، هي ما نريد استكشافه في هذا الباب، محاولين أن نقدم عنها تصورًا واضحاً مركزًا منسقاً متسقاً، يضع في اعتباره الوقائع الإنسانية الكبرى المتفق عليها على الشيوع. وكما هو الحال في الكتب الأخرى السابقة التي أخرجناها في إطار بناء أصولياتنا العقلانية الجديدة، فإننا سوف ننظر إلى الوجود مباشرة، والوجود هنا يتمثل في الظاهرة الإنسانية منذ كانت إلى اليوم، وبغير ما مراعاة خاصة لآراء سابقة أيًا كان أصحابها، مطبقين هكذا المبدأ المنهجي الذي عرَّفنا به في كتاب "مستقبل الفلسفة في مصر"، ألا وهو مبدأ "الصفر المنهجي"، والذي يطلب إلينا أن نعرف كل ما نستطيع من آراء الآخرين أيًا من كانوا، لنضعها، تلك الآراء، "على جنب"، حين نقوم بتنظيم الموضوع، واتخاذ المواقف، وعرض الأمر في نظام، حيث إن الأهم حقًا. بل والجدير وحده بالاعتبار في النهاية، إنما هو الوجود نفسه، أي هنا، الظاهرة الإنسانية، ونبدأ أولاً، عل طريق التقديم للحديث، ببعض المقدمات العامة.

أولاً: هل هناك حقًا "طبيعة إنسانية"؟

لن يختلف أحد في أن هناك، إن لم يكن "مشكلة الإنسان"، أو "المشكلة الإنسانية"، فعلى الأقل مشكلة في صدد فهمنا للإنسان، بل مشكلات ومشكلات. فالإشكال إنما يقوم في أذهاننا نحن، حيث معارفنا عن الظاهرة الإنسانية في شمولها ناقصة نقصًا شديدًا، كما أنها

مشوشة أو غامضة حين توجد، ثم هي تمتلئ، ليس بالفجوات وحسب، بل وبالتناقضات، أو بعدم الاتساق، على الأقل، في كثير من جوانبها. هذا عن المعارف، أما عن الآراء والمواقف والتصورات والنظريات، التي يدعى كثير منها أنها تصور حقيقة الإنسان، ويزيد بعضٌ منها بادعاء أنها الوحيدة التي تعبر عن تلك الحقيقة، فإنها متعارضة فيما بينها، وبقدر كثرتها وتتاليها عبر الأزمان والأمم والمفكرين بأنواعهم. فيها نقص وتشوش وغموض، واختلاف وتعارض وتناقض: هذا نصيب ما لدينا عن الإنسان كظاهرة عامة، ويكون نصيب كل باحث فيه، من بعد ذلك، الحيرة الشديدة والتردد المحبط بين مسارات ومسارات، حتى ليندر أن يجد الباحث المستقل الراحة الغالبة أو الطمأنينة المستقرة. وهكذا تعلو برأسها هذه الفكرة المقلقة: وهل يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه حقاً؟ وهل بمقدور البشر أن يصلوا إلى توافق، إن لم يكن إلى اتفاق، حول الطبيعة الإنسانية؟

وإنه لمن الحق الحقيقي أن المواقف والنظريات التي ظهرت إلى النور، وعند سائر الأمم، إنما هي تصورات جزئية أو جانبية في معظمها، إن لم تكن، أحيانًا، خاصة شديدة الخصوصية (كما هو الحال، مثلاً، في تصورات ما يسمى في الحضارة الغربية "بالفلسفة الوجودية" عن "الإنسان"). وتقف من ورائها إما توجهات غير محسوسة من البيئة المكانية أو السياسية أو الثقافية بعامة، وإما اعتقادات أساسية موروثة أو مقبولة بغير فحص نقدي، وإما، صراحة، خبرات شخصية لهذا الفرد المتميز، أيًا كانت الأعلام التي يرفعها أو اللغة التي يتكلم بها.

وحيث إن من المفهوم أن المنهج المتبع في البحث يؤثر أيما تأثير في النتائج التي ينتهي إليها، فإن من معالم السير على رؤية أوضح وأوضح إعلان كل طرف عن المنهج الذي يسير عليه، فضلاً عن المبادئ التي ينطلق منها. ولا مرية في أن ما يسمى "بالعلوم الإنسانية"، أو "الاجتماعية"، اهتمت بهذا الجانب المنهجي أيما اهتمام، ولكن السؤال الأبرز في هذا الصدد هو دائمًا، هل نستطيع حقًا دراسة الظواهر الإنسانية "بموضوعية؟ ولا نشير هنا إلى ذاتية الباحث، وإلى نوعية العينة المختارة، وإلى سائر ظروف الاختبارات والتجارب بأنواعها وحسب، ولا كذلك إلى أن تلك العلوم المذكورة إنما هي ربيبة الحضارة الغربية عامة وفي صورتها الأمريكية خاصة، فالفروض الأولى، والاهتمامات، وصياغة الأسئلة، وطرق الأداء في الأبحاث "العلمية" تلك إنما هي غربية وأمريكية قلبًا وقالبًا، في تطورات تلك العلوم ومنذ نهاية الحرب الغربية الكبرى الثانية (١٩٤٥م) على الخصوص. فالحق أن "العلوم الإنسانية" تلك إنما هي علوم الحضارة الغربية وحدها، وفي هذا ما فيه من تبرير لنفي قدر

كبير من "الموضوعية" عنها من حيث المناهج والاهتمامات والميادين والنتائج. لهذا كله، فإنه سيكون علينا، في هذا البحث الأصولي الذي نحن بصدده، أن نبرز، بقدر الاستطاعة، معالم المنهج الذي سنسير عليه، والمبادئ التي ننطلق منها، وأن نحاول النظر إلى الظاهرة الإنسانية بغير ما انحياز لرأي أو تفضيل مسبق لاتجاه أو موقف بقدر الطاقة.

ولكن طبيعة الإشكال، فيما يبدو، هي أعمق وأخطر: فليست معارفنا وتصوراتنا عن الإنسان هي الناقصة والجزئية والمتناقضة فيما بينها وحسب، بل إنه ليبدو أحيانًا، أن الظاهرة الإنسانية نفسها غامضة وتظهر على ألف وجه، وقادرة على التقلب قدرة بعض الحيوانات على تغيير ألوان جلودها، وهو ما يعود بنا إلى اعتبار أن الأمر إنما هو حقًا وفعلاً "مشكلة الإنسان" ذاته، وليس فقط مشكلة معارفنا وتصوراتنا عنه. وإذا كان الأمر كذلك، فأنَّى لنا أن نصل حقا إلى "الطبيعة الإنسانية" المشتركة الواحدة الدائمة؟ وسنكون هنا بإزاء أحد حلين متطرفين: إما رفض إمكان التوصل إلى تلك الطبيعة من الأصل، بل إنكار وجود مثل هذه الطبيعة تمامًا، وإما الاستسلام لقبول كل التصورات معًا وعلى قدم المساواة على رغم تعارضها، ولمن شاء أن ينتقي منها ما يشاء، فنقع في الذاتية المفرطة بعد ضياع إمكان الموضوعية المقبلة. ولكن، فإنه يبدو أن ذلكما التطرفين ليسا قدرًا مكتوبًا على الذهن البشري، وأنه مهما يكن من قصورنا من جهة، ومن تعقد الظاهرة الإنسانية من جهة أخرى، فإنه من الممكن الوصول إلى "شيء ما"، لكن بشرط الاتفاق أولاً على معنى اصطلاح "الطبيعة" نفسه، قبل أي شيء آخر.

ثانيًا: معاني كلمة "طبيعة":

إننا نضع الكلمات ونصطنعها، ثم فجأة تصبح هي التي تقودنا حيث تشاء، وذلك حين لا ننتبه إلى المعاني التي نقصد بها إليها، والتي نريد للقارئ والمستمع أن يأخذها بها. وربما لا يكون في اللغة مثيل لكثرة الاستعمالات التي تؤخذ عليها كلمة "طبيعة"، والصفة "طبيعي" المشتقة منها، ولا لمدى التداخل الممكن بين تلك الاستعمالات. ونلاحظ أول ما نلاحظ ملاحظة عامة، وهي أنه يمكن استخدام الاسم "طبيعة" إما من حيث إن له مفهومًا "متعينًا"، وإما من حيث إن له مفهومًا "مجردًا". أما من حيث المفهوم "المتعين"، فيكون الحال هكذا حين يدل ذلك الاسم على شيء يمكن أن يكون ذا وجود عيني متمثل في الوقائع، ومن ذلك حين يدل على العالم أو الكون أو الأرض، أو حين يدل على مجموع الظواهر القائمة في بقعة واحدة ممتدة، أو على الأرض كلها، من نبات وحيوان وجماد ورياح وعواصف وغير ذلك. وفي هذا الاستخدام نقول إن "الطبيعة هي أمنا الرءوم"، مثلا، أو نقول "الطبيعة

القاسية"، أو "تجدد قوى الطبيعة"، بل إن بعض الأمهات يستخدمن، في اللغة العادية، كلمة "طبيعية" للدلالة على الجوانب المادية من عملية الهضم عند الطفل الوليد وغيره. هذا المعنى المتعين والشيئي لاسم "الطبيعة"، والذي كان يقابله بعض الشيء في الاصطلاح الفلسفي القديم كلمة: "الجوهر"، لن يكون هو المقصود عندنا في حديثنا عن "طبيعة الإنسان"، كما ينبغي أن نحذر القارئ من الانزلاق إليه بغير انتباه، وذلك لا لشيء إلا لأن كثيرًا من التصورات الشائعة، وذات النتائج الوخيمة، هي على التحديد تلك التي تستخدم ذلك الاسم في هذا التعبير بالمعنى المتعين، أي كأن "طبيعة الإنسان" هي "شيء ما" موضوع فيه، وهي التي توجهه، وهي التي يراد الوصول إليها ووضع اليد عليها، وكأنها في الإنسان تقابل المحرك في السيارة، أو تلك الآلة أو غيرها في ذلك المحرك، والتي تشكل "القلب" منه، ونعود هكذا إلى الفكرة المصرية الأقدم: إن القلب هو جوهر الإنسان.

في مقابل الاستخدام التعيُّني لاسم "الطبيعة"، هناك الاستخدام التجريدي، الذي يشير إما إلى "تكوين" ما، بمعنى مجموعة سمات أمر ما، وإما إلى صفة أساسية ما. وفي هذا الاستخدام يكون معنى "الطبيعة"، حينا بعد حين، الماهية، أو الخصائص الجوهرية، أو الأساس، أو التكوين الأساسي، أو الأصلي، أو ما هو أولى، أو السمة الثابتة، أو تلك الدائمة، أو تلك المشتركة باتصال، أو النموذجي أحيانًا أو المعياري، ويقال "الطبعي" عما هو صفة لكل ما سبق، وكذلك عما هو مقبول بناء على التسليم بقواعد أو تعريفات سابقة، وعما لا يكون موضوعًا للتساؤل في موقف معين، لأنه ينتج عن تركيب أساسي أو خصائص جوهرية وما شابه، وعما هو ضد الصناعي والمصطنع. وبصفة عامةً، فإن استخدامنا الغالب لكلمة "الطبيعة" سيكون بمعنى "مجموعة الخصائص الأساسية"، وقد نستخدمه أحيانًا بمعنى "التكوين"، أو "التركيب"، الأساسي لتلك الخصائص حينما تظهر على هيئة تنظيم. وهكذا، مثلاً، وبالمعنى الأول، فإن من طبيعة الطفل الصحيح، في بيئة عادية، أن يتكلم في سن كذا، وبالمعنى الثاني، فإن من طبيعة المجتمع أن يغلب مصالح المجموع على مصلحة الفرد فيه.

ثالثًا: معاني كلمة "إنسان":

هذا عن اصطلاح "الطبيعة"، وماذا عن اصطلاح "الإنسان"؟ إنه لمن الأفضل أن نتوقف، ولو قليلاً، أمام هذه الكلمة الأخرى، وما يتصل بها من كلمات، لأن لتلك الكلمة استخدامات مخصوصة عند كثير من الكتاب تؤدي إلى أغلاط مشابهة أو مقابلة لاستخدام كلمة "الطبيعة" بالمعنى الشيئي في تطبيقها على الإنسان. ذلك أن هناك كثرة تتوهم، لأنها لم

تتوقف عند فحص الاصطلاح، أن هناك بالفعل في الوجود كيانًا قائمًا هو "الإنسان" بألف لام التعريف، وهذا الكيان يقبله كيان آخر ولكنه جمعي هذه المرة، وهو "الإنسانية"، ومن ذلك "الإنسان" العام، ومن تلك "الإنسانية" الجوهرية، تأتي خصائص كل فرد من البشر ممن يتلقون تسمية "إنسان". ونسارع هنا إلى الإشارة الفورية السريعة إلى أن كلمة "الإنسان" إنما هي تكوين تجريدي تمامًا، أي إنها والتصور المقابل لها من صنع الذهن وحسب، بحيث إنهما ليس لهما مقابل واقعي في شيء، فلا يوجد في الوقائع ذلك الإنسان الكلي العام الجوهري، أي الجامع على نحو خالص ومثالي للخصائص الأساسية لتلك "الإنسانية" المزعومة، لأن القائم بالفعل إنما هو أفراد معينون، منهم أنت وأنا، وهكذا كان الحال في الماضي، وسيكون كذلك في المستقبل. وكل فرد من الأفراد الإنسانيين لا يمكن، بحكم الوقائع، أن يحوز سائر الصفات التي يحوزها كل الأفراد الآخرين، اللهم إلامن حيث تكوينه الحيوي الأساسي وما ينتج عنه من قدرات مشتركة بأنواعها، حتى إن جهازك العصبي المتعين، والذي يخصك أنت وحدك، لا يمكن أن يتشابه تمامًا مع أي جهاز عصبي لأي فرد إنساني آخر، حتى لو كنتما معًا توأمًا. إن التفرد هو القاعدة المطلقة في عالم الكائنات الحيوية، وليس هناك من صوت بشري يشبه تمامًا كل الشبه صوتًا بشريًا آخر، ولهذا فإن الاشتراك في سمة "الصوت البشري"، هو أمر تجريدي محض، وكذلك تكوين "الإنسان"، فهو لا يقوم في عالم الوقائع، بل في عالم الأذهان وحسب.

وقد يتساءل متسائل: وماذا عن "الإنسانية" أو "البشرية"، وما شابه ذلك من تسميات؟ فنقول: إذا فهمنا من كلمة "الإنسانية" مجموع الأفراد الإنسانيين، في الحاضر كما في الماضي، فإنها سوف تعني "النوع الإنساني"، وهو موجود بالمضمون السابق نفسه: مجموع الأفراد الإنسانيين، أما غير ذلك، فلا وجود "لإنسانية" مزعومة، يريد البعض أن ينسب إليها ما شاء، ومن ذلك التقدم أو غيره، أو العذاب والشقاء وما شاكل. إن "الإنسانية" ما هي إلا مجموع أفراد البشر، وحسب، وهي لا تدفع إلى شيء، ولا تتجه إلى شيء، ولا تتقدم ولا تتأخر، اللهم إلا إذا أضفنا كل ذلك إلى "مجموع أفراد البشر". إن "الإنسانية" مجرد تجريد ذهني ولا قيام لها في الواقع.

رابعًا: معنى اصطلاح "الطبيعة الإنسانية":

والآن، ماذا يعني أمامنا اصطلاح "الطبيعة الإنسانية" أو قل، وهو الأفضل لأنه يبعدنا أكثر عن مواطن الزلل التشيؤي، "طبيعة الإنسان"؟ لنقل أولاً، سلبًا، إنه لا توجد "طبيعة" إنسانية ذات مضمون محدد، وإنما توجد قدرات ووظائف، وحاجات ومحددات، وكلها شكلية وبنيوية، وهو ما يعني بعبارة أخرى أن طبيعة الإنسان ما هي إلا تكوينه الأساسي، وأن هذا

التكوين محايد، لأنه أقرب ما يكون إلى البنية الشكلية وبغير مضمون محدد سلفًا في أغلب الأحوال: فهو يحتاج إلى التغذية، ولكن الغذاء قد يكون كذا أو كذا، وفي المقابل فلابد من الاعتراف بأن بعض الحاجات الضرورية لها مضمون محدد، من مثل الهواء والماء، ولكن هذا حال الاستثناء وليس القاعدة. ولنقل الأمر نفسه، ولكن بعبارة مختلفة: إنما طبيعة الإنسان أنه جهاز ذو قدرات معينة، ويقوم بأنشطة وبوظائف خاصة، ولكن هذا الجهاز، أو هذا التكوين، مرن إلى درجة ملحوظة، فهو قابل لشيء من التعديل، حتى ليكاد يمكن أن نقول إن الإنسان يصنع نفسه بنفسه، كما إنه يُصنع أيضًا، ومن قبل هذا ومن بعده، عن طريق الآخرين، ومن خلال نشاطه المستمر، وفي إطار العلاقة مع العالم، وفي ظل الظروف والمحددات والموجهات التي تجابهه البيئة بها بأنواعها. ويظهر من هذا أننا نعتقد أن التكوين الإنساني تكوين منظم، فهو تركيب معقد ودقيق ومتكامل إلى درجة بعيدة. لذلك أمكن القول إن الإنسان نظام وتنظيم. ولعله مما يتسق مع هذه النظرة إلى طبيعة الإنسان أن نقول إنه ينتج عنها أنه يصعب أن ننسب إلى تلك الطبيعة أهدافًا محددة المضمون ومسبقة، وإنما القائم حقًا في الأساس هو حاجات وقدرات شكلية بنيوية، وفي إطار تأثير البيئة بوجه عام. ولكن الجديد حقًا، والذي يميز الكائن الإنساني عن الكائنات الحية الأخرى سائرها، أنه، ابتداء من تكوينه وجهازه وقدراته وحاجاته، ينبثق نشاط عجيب منوع متدفق يأتي بالجديد حقًا. هذا الجديد لابد من اعتباره جزءًا حقيقيًا من تلك "الطبيعة الإنسانية"، من حيث إنه مميز للإنسان عن غيره تمامًا، فلا ينبغي أن نقف عند تعريف الإنسان مثلاً بأنه كائن يفكر، بل يتوجب أن نضيف إلى ذلك استخدام اللغة، والصفة الاجتماعية، والنشاط الفاعل المنظم القصدي الهدفي، والحس التقديري، ومن أشكاله التقدير الجمالي والفني، بل والظاهرة الدينية كذلك، وهي التي لا نجدها عند غير الإنسان .. وهكذا نجد أنفسنا أمام انفتاحة جديدة وضرورية في تناول موضوع طبيعة الإنسان: فهو ليس كيانًا ساكنًا، تفتحه وتنظر فيه ثم تغلقه، بل هو كيان ذو نشاط وفعل، أو قل، في كلمات أخرى، إنه لا يمكن تناول الطبيعة الإنسانية إلا في إطار مفهوم أعم هو "الحياة الإنسانية".

وهكذا، فإنه بالنظر إلى ما يثيره استخدام تعبير "الطبيعة الإنسانية" هذا، فإنه يحسن التخلص منه، واعتماد تعبير "التكوين الأساسي الإنساني" من الآن فصاعدا.

خامساً: الحياة والحياة الإنسانية:

وليكن بارزًا أمامنا، ومن البداية خصوصيات ظاهرة الحياة ذاتها، وعلى نحو عام، أي على نحو ما توجد في سائر الكائنات الحية، التي أحدها الإنسان. ولا نمل من تكرار أن كلمة "حياة" إنما هي اسم معنى، أي مفهوم في الذهن وحسب، وأننا عندما نقول "ظاهرة

الحياة"، فإنما نعني عددًا من السمات التي تجتمع في كائنات مفردة يسمى كل منها "كائنًا حيًا"، فالموجود الحقيقي ليس هو "الحياة"، بل الكائن الحي والكائنات الحية. وتدل كلمة "حياة" في الاستعمال العادي وعند سائر الأذهان، وحتى عند الأطفال، ودون ما إعمال لتفكير دقيق، على ما يشعر ويتحرك ويرد ويفعل. ولكن أهمية المفهوم، واتساع ميدانه معًا، جعلا الكلمة تدل، في استخدامها في شأن البشر، على العديد من المعاني بحسب المواقف والمداخل وغير ذلك. فهي تدل، في أعم ما تدل عليه، على الظاهرة العامة، أو السمات المشتركة، بين كل الكائنات الحية، وهو ما أدى إلى توهم أنه يوجد في كل كائن حي "شيء" اسمه "الحياة". وفي المقابل، فإن "الحياة" تدل بكل قوة على الواقعة المضادة للموت، فلا تكاد تذكر الحياة إلا ويلوح، بعيدًا أو قريبًا، خاطر الموت. ثم هناك معنى ثالث للكلمة، وهو أنها مجموع القدرات والأدوات التي للحياة بالمعنى الأول، أي تفصيل سمات الظاهرة العامة عند الكائنات الحية، وربما امتد هذا المعنى الثالث ليشير إلى ما تقتضيه هذه الظاهرة، أي إلى قانون الحياة أو قوانينها، وهو ما يظهر، مثلاً، في قولهم: "هذه هي الحياة"، أو ما شابه. وفي معنى رابع أكثر تخصيصًا، فإن "الحياة" كلمة تدل، بكل بساطة، على الامتداد الزمني لكون فرد ما حيًا، وهوما يظهر مثلاً في تعبير "سيرة حياة"، أو في قولهم "عاش فلان حياة عريضة طويلة معًا". ويتصل بذلك معنى خامس، وهو أن الحياة هي محض "العيش"، كما في قولهم: "عاش حياة بائسة خلال إقامته في مدينة كذا"، ولكن مفهوم "العيش" يدل خاصة على السعي للبقاء حيًا مع التوافق مع البيئة، والرد على المنبهات بطريقة مناسبة، وإقامة المشروعات خلال الأيام ومحاولة تنفيذها. أخيرًا، فربما كانت الكلمة تعني أحيانًا، في بعض الاستخدامات الخاصة، إدراك الفرد لنحو عيشه، ولكن من الداخل، كما في قول أحدهم: "حياتي لم يعد لها طعم". وأما الفعل "يحيا"، فإنه يدل على كون المرء حيًا بأحد المعاني المشار إليها. تبقى الصفة "حى"، وهي تدل، في الحق، على معان كثيرة جدًا، من أبرزها: أ- الكائن الذي تنطبق عليه أحد معاني كلمة "حياة"، ب- ما هو قوى أو حاد أو موعيٍّ به، ج- ما هو قصدي من الإدراك الواضح المتميز، ومن هذه الزاوية فإن "حي" و"حيوي" تعبيران متداخلان كثيرًا فيما بينهما.

وقد سبق لنا، في فصل "التأسيس الحيوي الأول" من كتاب "تأسيس الحرية"، أن عرضنا لأبرز خصائص الظاهرة الحيوية على الأعم، حيث رأينا أن كل حياة فيها حركة ذاتية وحس، وقدرة على الاستجابة والمبادرة، وأنها في جوهرها تنظيم وظيفي مفتوح ومرن، وأن سلوكها هدفي، وله قدرة على التكيف مع البيئة، وهو ما يدفع إلى رفض النمطية والواحدية، ولا يتناسب معه الخضوع المطلق للمؤثرات الخارجية. كما رأينا هناك، من جهة

أخرى، أن المعرفة الوظيفية أساسية للحياة، التي يمكن تشبيهها، من هذه الناحية، بالتنظيم الناقل للمعلومات، بعد تلقيها، بل وخلقها أحيانًا على بعض المستويات. إن الجديد حقًا في الظاهرة الحيوية هو القدرة على ابتداء النشاط، وعلى تغيير الاتجاه وعلى الرفض والقبول. هذه السمات الأساسية العامة تصل إلى أقصاها مع الكائن الإنساني الذي يحتل قمة التطور الحيوي، ولكنه مع ذلك يكوِّن قسمًا من ظاهرة عامة، بحيث إنه ينبغي التأكيد على الوحدة العامة للحياة، وهي تظهر فوريًا في تعاطفنا التلقائي مع حركة كل كائن حي. ومن الواضح أن التصوير الذي قدمناه لأساسيات الحياة لا يتوافق معه خط الفهم "الميكانيكي" لها، لأن الحياة ظاهرة كلية وتفاعلية وتكاملية. أما الصلة الضرورية مع البيئة، ومطلب التكيف اللازم، فإنهما قد يؤديان أحيانًا إلى مفهوم الصراع نتيجة لقيام موقف تناقض نهائي، كما إنهما قد يشهدان على أهمية "السيطرة" كهدف وسائلي من أهداف الكائن الحي، أما اعتبار التناقض والصراع من جوهر الحياة، فإنه استنتاج يدل على صاحبه بأكثر كثيرًا مما يدل على الظاهرة موضوع الدرس. ومع ذلك، فإن القوة هي من علامات الحياة، من غير شك، وكذلك التزاحم، وطلب الحصول على الطيبات، والكائن الحي الذي يتناسى أن هناك كائنات أخرى من أشباهه سوف يجد البرهان على خطئه آجلاً إن لم يكن عاجلاً.

والحق، أن الحس السليم يدعونا إلى الانتباه إلى أن الحياة هبة عظيمة، هي هدية لا مثيل لها، وينبغي أن نحسن استخدامها، وأنها فرصة بغير مثيل لعمل الطيب العظيم. ولهذا، فإن كل الشعوب جعلت الحياة أعظم من الموت، حتى إنها نسبت الحياة إلى الألوهية ذاتها، فلا يوجد تصور عن "إله ميت"، إنما الإله هو المنتصر دائمًا على الموت. إن احترام الحياة، عندي وعند غيري، لهو نتيجة تفرض نفسها على كل متفكر ذي حس سليم.

والآن، فإننا إذا نظرنا إلى الإنسان في إطار الحياة على التعميم، فإن نظرية الإنسان تتحول في الواقع إلى نظرية في وجود الإنسان، أي في نحو وجوده، وسوف يتأكد هذا المنظور حين نتناول، من بعد، مفهوم "الوضع الإنساني". ومن الملاحظ ليس فقط ارتباط الإنسان بسائر مظاهر الحياة عند الكائنات الأخرى، فضلاً عن تأثره الضروري بها، بل وكذلك إمكان القول بأن أحد الاتجاهات الأولية عند الكائن الإنساني هو التعلق بالحياة و"حب الحياة" صراحة، سواء عنده أو عند غيره من الكائنات الحية، أو على الأقل، فيما يخص هذا الغير، الاهتمام الشديد بها، ولنتذكر وحسب مدى تعلق الطفل بالقطة والعصفور لا لشيء إلا لأنهما يتحركان. ويمتد هذا الاهتمام، ثم هذا التعلق إلى درجة الحب، إلى الأرض عمومًا، وهي البيئة الوحيدة، على ما نعلم، التي تطورت عليها الظاهرة الحيوية هذا

التطور العجيب المدهش. فنحن نرتبط بالأرض ارتباطًا حشويًا، وهي بالفعل أُمُنا، ويبرز فيها على الخصوص هذا التجدد الدائم عليها من كل وجه. والحق أن معنى أنني حي لابد أن يكون متضمنًا أنني على علاقة جوهرية بالأرض كلها، وبكل الكائنات الحية عليها عمومًا، وما يوجد منها في بيئتي مباشرة على وجه الخصوص. لذلك، فليس بدعًا أن ننتبه إلى أن هناك شروطًا عضوية للحياة الطيبة، وهي الغاية العليا للحياة الإنسانية، والتي يمكن أن تظهر على ألف وجه ووجه. ونتيجة هذا كله هي أنه لابد أن يعتمد تصورنا لطبيعة الإنسان على فهمنا للحياة عمومًا، وللحياة الإنسانية خصوصًا، ولما يأتي عليها من تحولات. ثم إنه ينبغي أن نستخلص من خبرات كل البشر، بمن فيهم ذلك الشاكي من الحياة في شعر جميل، أن الحياة، والذهن الإنساني على وجه التحديد، هبة وهبة جميلة، ومن الواجب استخراج كل نتائج هذا الموقف التأسيسي.

وقد أكدنا دومًا، ومنذ "تأسيس الحرية"، على أن الحياة تظهر بالضرورة في كائن حي معين، أي في فرد ما، وكل فرد حي يكون دائمًا هنا والآن. وليس في أي مكان، وفي "لا مكان"، وفي زمان معين، وفي نطاق الأزمان بالضرورة، وبالتالي فإنه يكون دومًا على حالة معينة محددة، وعلى هيئة معينة محددة. وهكذا، فإننا ننظر بطرق إلى الظاهرة الحيوية عمومًا، وبطرف إلى الفرد الحي، وبطرف ثالث إلى الكائن الحي الإنساني الذي هو شخص وذات. وليس هنا مكان للتوقف عند تقييمات مختلفة للحياة الإنسانية، تذهب من طوالى أنها كالهباء، بل إنها حلم أو وهم، إلى طرف مقابل بعيد يرى أنها ضرورية للعالم، وكأن العالم وكائناته، بل والألوهية ذاتها، معلقون عليها! ولكننا نقتصر على الحكم المناسب العاقل: ألا وهو أن الحياة الإنسانية أمر واقع، ولنفعل بها من بعد ذلك من نشاء، كل بحسب ما يختاره من معايير وتقديرات، ما يخضع له أو يرتضيه من موجهات واعتبارات ليصل كل هذا إلى التساؤل حول مغزى الحياة الإنسانية، وهدفها، وغايتها، ومصير الإنسان إن فردًا وإن نوعًا.

سادسًا: أساسيات في النظر إلى الإنسان:

ولقد يبدو مما سبق أن تصورنا تصور حيوي في جوهره، ولكنه كذلك، في الحق، تصور بنيوي وتركيبي ووظائفي، وغير ذلك، أيضًا ومن جهات أخرى. ومن وراء الانطلاق ابتداءً من ظاهرة الحياة في عمومها، فإننا نرى ضرورة الانطلاق من الكون ذاته، ومن نظامه وتنظيمه، ومن هنا إلى الانطلاق أيضًا من أعم المفاهيم: الوجود. إن الإنسان جزء من الكون، وفيه عناصر مما في الكون، وهو يتحول في بعض اللحظات، إن بإزاء أغياره أو بإزاء قوى الطبيعة، وإن حيًا أو ميتًا، إلى مجرد شيء يُحمل أو يلقى به أو حتى تقطع أوصاله تقطيعًا. وليست الحاجة إلى الهواء والماء بذات مغزى قليل الشأن في هذا الصدد،

أي صدد كون الإنسان جزءًا من العالم، هذا العالم نفسه الذي هو البيئة الطبيعية والضرورية لنشاط الإنسان، ذلك النشاط الذي لا يكون الإنسان إنسانًا إلا به. ونخلص من كل هذا إلى نتيجة قد تدهشنا، ولكنها الحق كل الحق: إن الإنسان كائن نسبي، فهو نسبي بمعنى أنه لا يعيش إلا بالإضافة إلى غيره، وهو نسبي أيضًا بمعنى أنه مجرد جزء من كل، فلا يكاد يستطيع الوصول إلى هذا الكل إلا تخمينًا أو مصادفة، أو بهداية من قوة ما. إن عالم الإنسان هو عالم النسبية. فلنتعظ، ولنتواضع.

وربما لم يكن من أقل تجليات هذه النسبية الجوهرية التي تحكم فهم الإنسان وتصوراته ومعارفه، بل ونشاطه في عمومه، أن طرائق نظر البشر إلى الظاهرة الإنسانية قد تنوعت واختلفت اختلافًا بالغًا، وقامت جهات مختلفة بتقديم تصورات متباينة في شأنه، فنظرت إليه، بالنتيجة، من جوانب مختلفة إن لم تكن متعارضة، واستخدمت في ذلك مناهج متنوعة. وإذا أردنا استخدام الاصطلاح التقليدي، فسوف نقول إنه قد قدمت عن الإنسان تصورات "روحية"، وأخرى عقلية، وثالثة عاطفية، ورابعة دينية، وعارضتها تصورات مادية، إلى غير ذلك من التسميات. وإلى جوار اختلاف الأمم والعصور، فسوف تجد في الحضارة أو الثقافة نفسها تصورًا يقدمه رجال الدين على اختلاف معتقداتهم، أو رجال العلم أو الفنانون أو الأخلاقيون أو الفلاسفة من مذاهبهم المتعارضة، وربما قام تصور عن الإنسان من منظور السلوك السياسي، أو السلوك الاقتصادي، أو السلوك التربوي، أو غير ذلك. ثم لنضف أن الثقافة الشعبية في كل أمة لها تصورها العام عن الإنسان، حتى وإن لم يقم إلا ضمنًا، أو إن لم يقم إلا من خلال بعض الحكايات، أو بعض الشخصيات المختارة، بل إننا ليمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول إن كل فرد إنساني لديه تصوره الخاص عن البشر وعن الطبيعة الإنسانية. وقد نظرت التصورات العامة عن الإنسان إليه من جوانب مختلفة، فهو حينًا الإنسان الواقعي على نحو ما نشاهده في خبراتنا العادية، وهو حينًا ذلك النموذجي، والمثالي، وعلى ما ينبغي أن يكون، وهو حينًا الإنسان القريب من الحيوان، وحينًا آخر ذلك المفكر الذي يكاد يكون كله تفكيرًا متعقلاً. وكما من الطبيعي أن تنوعت مناهج النظر إلى الظاهرة الإنسانية: فقد سادت المناهج العقلانية حينًا، ثم ظهرت في مقابلها مناهج علمية تهتم بإيراد البرهان التجريبي، وكان "التعاطف" وسيلة لدى البعض. وظهرت كذلك وسيلة الاستنباط ابتداء من مبدأ موضوع مسبقًا، واستخدمت أخيرًا مناهج الإحصاء الناتجة عن التوجه الرياضي في فهم كل شيء، وفي كل ذلك كان هناك المتطرفون والمعتدلون. ولا شك أنه ينبغي، بعد هذه الدورة السريعة حول اختلاف طرائق النظر إلى الإنسان، أن نتساءل عن أسبابه: فربما يكون السبب هو اختلاف مصالح واضعي التصورات، أو يكون اختلاف طبيعة

السؤال الموضوع ابتداءً، حيث يمكن أن نستخدم هنا شتى أدوات الاستفهام، حيث تختلف "من؟" عن "لماذا؟" عن "كيف؟"، إلى غير ذلك، وقد يكون السبب هو أن الإنسان ليس ظاهرة واحدية المظهر، وأنه ليس واحدًا ولا بسيطًا، أم قد نقول إن السبب هو الاختلاف في نقطة البدء المختارة في البحث، أو في الغاية، الصريحة أو المخفية، منه؟

سابعًا: بعض المعالم البارزة:

وفي ختام هذه التقديمات التي كثيرًا ما اتخذت شكل التساؤل وشكل بدائل الإجابات المنوعة، فإنه يحسن أن نشير بإيجاز إلى بعض المعالم البارزة، عن التكوين الأساسي الإنساني. وقد سبق أن أشرنا، منذ قليل، إلى أننا نهتم كثيرًا بالمنظور الحيوي إلى الإنسان، ولكننا لا نقفل الباب دون غيره من المنظورات، فنهتم بالمنظور البنيوي، وبذلك الوظيفي وبغيرهما، كما نضع الإنسان في إطار الكون كله ومجمع الوجود. من جهة أخرى، فإن معظم مسائل الإنسان يمكن تناولها إما من المدخل النشوئي، أي بالنظر إلى نشوء الظاهرة ونموها وعواملها وتفاعلاتها، وإما من المدخل الهدفي أخيرًا، أو قل "الغائي"، أي من حيث الهدف، أو الغاية، الذي يسعى إليه النشاط المعين، أو من هذه المداخل جميعًا الواحد منها بعد الآخر، وذلك انطلاقًا من ضرورة تعدية المنظور، ومن نسبية كل منظور مأخوذًا على حده، ويتصل بهذا على الفور أننا لا نريد أن نقع في فخ التقسيمات الثنائية المبسطة المطلقة، لأن ظواهر الإنسان أكثر تعقيدًا مما يتوهم الكثيرون. كذلك، فإننا، وكما ظهر من قبل، نؤكد كثيرًا على جانب النشاط في الظاهرة الإنسانية، وما يتصل به من مفاهيم "الجهاز" و"العوامل" و"التفاعلات"،وما إلى ذلك، حيث إننا سبق أن قلنا إن الطبيعة الإنسانية لا تنطلق من "مضمون" معين محدد مسبقًا، بل هي تكوين ذو حاجات وقدرات في المحل الأول والأهم، وهوما ينتج عنه سذاجة المذاهب التي توهمت أن "للإنسان الأول" نوعًا من "البراءة الأولى"، فلا براءة ولا ضدها هنا في البداية، بل تكوين، وجهاز، وحاجات، وقدرات شكلية وبنيوية، وما دامت الظاهرة الإنسانية معقدة ومتعددة الجوانب، فلابد من تنوع المنظور والاهتمام بالتفاعلات، وبتعدد المستويات والدوائر، وبتبادل المراكز بين عوامل الظاهرة وأركانها، فقد يكون هناك المركز نفسه، ولكن تدور من حوله دوائر مختلفة متداخلة أو متقاطعة. إن الإنسان، مرة أخرى، ليس واحدي التكوين ولا بسيطه، والحياة الإنسانية قصر من ألف باب، والإنسان هو الذات وهو الآخر وهو نحن، معًا وتبادليًا.

ثامنًا: رفع بعض الأوهام:

على أن الانطلاق من الوجود مباشرة، وعلى أساس مفهوم "الصفر المنهجي"، يفرض علينا التأكيد بوجه خاص على ضرورة استقلال ثقافتنا الجديدة، وبقدر الإمكان وبحسب ما تسمح به أحوال الوقائع على مر التطورات، عن الحضارة الغربية، إن في معرفتها وفلسفاتها أو في اختياراتها الإنسانية بأنواعها أو حتى في أنماط سلوكها. ليس هذا وحسب، بل إنه لمن الضروري ضرورة مطلقة أن يقطع دابر كل وهم بوجود صلة حقيقية لنا مع الأصل الذي تراه الحضارة الغربية لنفسها، ألا وهو الثقافة اليونانية. إن علينا إزاحة أكبر عدد ممكن من الأوهام التي ترزح تحتها أفهامنا منذ مائتي عام، وهي أوهام تخص ميادين عدة، ومنها هذا الميدان الذي نحن بصدده الآن بفرعيه: الحضارة الغربية وسلفها الحضارة اليونانية. وهكذا، فإن موضع التأكيد هنا هو رفض نموذجية تصورات الغرب عن الإنسان، ورفض "القيمة الدائمة" المزعومة للتصورات اليونانية عن الإنسان. ومن نافلة القول إن إيفاء هذين الأمرين حقهما العدل يحتاج إلى تفصيل طويل جدًا، وهو ما لا يمكن القيام به في هذا المقام، ولذلك وجب إثبات رءوس الاقلام في شأنهما وحسب.

ولنبدأ من اليونان، لأن الحضارة الغربية ذاتها اعتبرت أن تصورها الجديد، فيما يسمى بعصر "نهضتها" هي، عن الإنسان، إنما يقوم على "إحياء" المفاهيم اليونانية القديمة، على إثر رغبتها في هجر التنظيم المسيحي، فأصبحت الثقافة اليونانية هي النموذج في كل شيء، ما عدا ميدان العلم الطبيعي، وحتى في هذا الميدان فإن "النهضة" و"الإحياء"، وإن كانا قد ألقيا بسلطة أرسطو أرضًا، إلا أنهما رفعا من جديد أعلام أفلاطون الرياضية الطابع. وهكذا أصبحت الشخصيات اليونانية، إن في الشعر أو المسرح أو النحت أو التعبير الفلسفي، هي المعيار، وهي التجسيد "للإنسان الحق"، وكأن إنسان اليونان، على نحو ما فسرته "النهضة الأوروبية"، هو الإنسان الأعلى القمين بالتقليد، وذلك لكل البشر. ويسير مع هذا الزعم زعم تال، ولا يقل عنه خطرًا، وهو أن "العقل" إنما هو جوهر الإنسان. ولا نقول هنا إلا شيئًا واحدًا: حضارة اليونان ما هي إلا حضارة ما بين حضارات، وليس لها من قدر أعلى من أية حضارة أخرى لأصغر الأقوام شأنًا، وتصوراتها عن الإنسان لاتخص أحدًا غيرها، ولا حتى الحضارة الغربية نفسها في جوهرها، وبصرف النظر عن ادعاءات ظهرت في عصر "نهضتها" و"ظاهريا" لا لشيء إلا لأن اليونان لم يفكروا إلا لأنفسهم ومن أجل أنفسهم، ومن السائد لديهم، على الأقل حتى أرسطو ومعه، احتقار الشعوب الأخرى واعتبارها في مرتبة العبيد بالنسبة إلى اليونان.

وهذا الحكم العام نفسه ينطبق على الحضارة الغربية، وهكذا ينهار القول بنموذجيتها، ومعه القول بمرجعيتها الشاملة. والحق أن إعلاء الغرب لليونان إنما هو جزء لا يتجزأ من إعلائه لذاته، وإن ما يسمى "بالمركزية الأوروبية" إنما هو ظاهرة سائدة حاكمة منذ عصر تلك "النهضة الأوربية" إيجابًا وسلبًا، أي من حيث النظر إلى الذات، ومن حيث النظر إلى الآخر. وكشأن اليونان، فإن الغرب، حينما يكون صادقًا، وحينما يظهر على حقيقته، لا يحترم الشعوب الأخرى، بل إن شعوبه هي ذاتها توضع على نحو من درجات سلم المراتب، وأما الشعوب الغربية التي تحتل أعلى درجات السلم، فهي تمتلئ احتقارًا لغيرها، فهكذا الإنجليز بإزاء الفرنسيين، وهكذا الفرنسيون بإزاء الأمريكيين، وهكذا الألمان بإزاء الإيطاليين... إلخ تبقى ثلاث نقاط فقط: إن الغرب حضارة ما بين حضارات، وقد اختارت لنفسها المادية، والفردية، والآلية، وحب الغزو المستمر، ومن مظاهره مركزية الجماع في السلوك المعتاد لأفرادها، وعشق الإنتاج، والرغبة العارمة في الربح، حتى لقد توج المال إلهًا عندها، وحتى لقد ظهر من بين صفوفها من يقول: لقد ضيعنا الإنسان الداخلي، الإنسان الحقيقي الباقي. وإن للغرب مع البشر، من خارجه ومن داخله على السواء، لتجربة دموية هائلة، تبدأ من وحشية الاعتداء على سكان الأمريكتين، وبحروبه الدينية الداخلية ذات المآسي منذ القرن السادس عشر الميلادي، حتى حرب فيتنام والعدوان الأمريكي السافر الجائر على أرض العراق وأفغانستان، ومن قبل كل ذلك حربه الأوروبية الكبرى الأولى، ثم الثانية وهذا العدوان الحربي يقابله عدوان، لا يقل عنه افتراسًا، هو العدوان الاقتصادي والمالي الذي تقوم به الجماعة أو الطبقة التي تمثل الحضارة الغربية أحسن تمثيل، وهي طبقة "أصحاب المشروعات" أو "الرأسماليين" أو "الصناعيين" أو، كما يقال هذه الأيام "تجملاً، طبقة "أصحاب الأعمال"، ثم يتوازى مع هذين عدوان شامل ثالث يسمى بالسيطرة الإعلامية على الأذهان، وهكذا وهكذا. هذا الإنسان الغربي لا كرامة له خاصة عندنا، بل شأنه شأن بقية البشر. ولا نريده نموذجًا، وهو ليس مرجعًا لنا. ولن نثير هنا مسائل تخص دعوى أن الحضارة الغربية وفرت للبشر من ألوان الراحة ما لم توفره حضارة أخرى، ولا دعوى أن الفن الغربي هو الأعلى والنموذج، ولا دعوى أن بانتصار الرأسمالية المتوحشة على الشيوعية الهمجية يتم "نهاية التاريخ"، أو بالأدق تتحقق "غايته"، ولا غير ذلك، لأن المجال هنا لا يسمح بهذا، وإنما نؤكد من جديد على أن إنسان الحضارة الغربية إنما هو إنسانها هي وحدها، وليس الإنسان النموذجي لكل البشر، ولا لنا نحن على الأخص، ونحن من نحن حضارةً وتاريخًا، وقدرًا. وعلى هذا، فلا يوجد شيء اسمه "الإنسان الحديث"، بل هناك إنسان الغرب وحسب، أما إنساننا فإننا نحن الذين (أفرادًا وثقافة وأمة) سوف نقدم، لأنفسنا بأنفسنا، تصورنا عنه، وسوف نصنعه، بالأفعال، صنعًا.